

الكنيسة الرومانية في عهد البابا جريجوري السابع وعلاقتها بالحماديين في بلاد المغرب الأوسط

السيد: بوكنة عبد العزيز

أستاذ مكلف بالدروس

قسم التاريخ لجامعة الجزائر

مستخلص

يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على نقطة هامة في تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، خلال العصور الوسطى الأوروبية وإلى شرح رسالة البابا جريجوري السابع، إلى الحاكم الحمادي، الناصر بن علناس. إن مسألة التسامح والتعايش بين المسلمين والمسيحيين، على ضفتي حوض البحر المتوسط، تجسد فعلاً قمة العطاءات في الحضارة العربية الإسلامية خلال تلك الفترة المشحونة تارة بالتعصب وتارة أخرى بالتسامح بين الديانتين: الإسلامية والمسيحية. حاولنا شرح فحوى رسالة البابا جريجوري، إلى ابن علناس وإلى طرح قراءات دينية وسياسية لها، عبر مقالات وكتب جديدة، كما حاولنا إعطاء بعض الدلائل على المكانة الاجتماعية التي احتلها المسيحيين داخل المجتمع الحمادي، بغض النظر عن (شكاوي) البابا إلى الحماديين.

The Roman Church under the Pope Gregory VII, and its relations with the Hammadites in the Maghrib.

B

Mr: Boukenna Abdelaziz

(ABSTRACT)

The present paper describes the relationship between the Christians and Muslims during the Middle Ages. We want also to explain the aim behind the Pope's letter to the Hammadite's ruler, Al-Nasar ibn Anasse at a crucial and a critical times, between the East and the West, (the Crusades). The good relations between them pushed the Pope to write a letter to Ibn-Anasse, asking him to release some captives Christians in his Qal'a.

The blames of some historians which were put upon the Muslims, were wrong, because the Muslims throughout their wars which they waged against the Christians, they kept their traditional Islamic customs, (they did not harm them). However, The Christians - if they were captured at Qal'a - we think, they were well-treated by the Hammadites, without the interference of the Pope Gregory VII, to release them.

لقد حدث سنة 1076م أن قام البابا جريجوري السابع (1073-1085م) بكتابة رسالة إلى الناصر بن علناس (1062-1088م) أمير دولة بني حماد في بلاد المغرب الأوسط، ردًا على جواب كان قد تلقاه بواسطة رجل دين من هذا الأخير ليبعث إليه بمقدم ليشرف بنفسه على شؤون المسيحيين المقيمين أو المتواجدين في إمارته ببلاد المغرب الأوسط. وكما يدل من التواريخ التي حكم فيها كل من البابا والناصر، أن هذه الاتصالات جاءت في فترة أمتازت فيها العلاقات بين الشرق أي العالم الإسلامي والغرب اللاتيني الأوربي بالتعصب أحياناً وبالليونة أحياناً أخرى، وتركت بصماتها في هذا التاريخ المشترك بما أصبح يعرف بالحروب الصليبية. وعليه فرسالة البابا جريجوري السابع جاءت على النحو التالي :

((من الأسقف جريجوريوس، خادم خدام الله، إلى الناصر ملك إقليم موريطانيا السطيفية في إفريقية. تحية وبركة رسولية.))

لقد بعثت لنا نبألك في هذه السنة نفسها رسائل لكي نقوم بسيامة القس سرافانوس أسقفًا وفق الشريعة المسيحية، وهذا ما عجلنا بعمله، لأن طلبك بدأ لنا عادلاً ومثاليًا.

ولقد أرسلت إلينا أيضاً هدايا. ومرعاة للقدّيس أمير بطرس الرسل، ومحبة فينا، حررت المسيحيين المحتجزين أسرى لديكم، كما وعدت بأن تطلق سراح الأسرى الآخرين. أنه، بكل تأكيد، الله، خالق جميع الأشياء، والذي من غيره لا نستطيع أن نفعل شيئاً، ولا أن نفكر في الخير، هو الذي ألهم قلبك الصنيع الطيب. أن الله، الذي يهدي كل إنسان آت إلى هذا العالم، قد أضاع ذنك لهذه الغاية. إن الله، كلي القدرة، الذي يريد أن يكون جميع الناس سالمين، وإن لا يهلك أحد، لا يستحسن، في الحقيقة، شيئاً فينا أكثر من أن يحب الإنسان الناس بعد حبه لله، وأن ما لا يريد أن يفعله الآخرون به لا يفعله هو بهم. وعلى ذلك ينبغي أن تكون المحبة، بيننا، نحن وأنتم بوجه خاص، أكثر مما تكون بيننا وبين الشعوب الأخرى، طالما أننا نؤمن ونعرف - بطريقة مختلفة في الحقيقة - بأنه واحد نسيح بجمده، ونجله كل يوم خالقا للأجيال وحكام هذا العالم. وكما قال الرسول ((هو سلامنا، هو جعل الاثنين واحد)) وأيضاً، فانه عندما علم الكثيرون من أشراف روما، عن طريقنا، بالنعمة التي منحك إياها الله، أعجبوا بطيبتك وبفضائك وأداعوها للجميع. ومن بين هؤلاء اثنان من المقرّبين إلينا - البيريكيوس *Albercius* وكنكيوس *Cincius* - تربيا معنا، تقريباً، منذ صباهما في القصر الروماني. وهما إذ يرغبان كثيراً في الوصول إلى صداقتك ومحبتك، وفي أن يقوموا باغتباط بخدمتك في دوائرننا، بما يروق لك، يرسلان اليك رجلاً من لدنهما، سوف تعرف عن طريقهم، كم هما يعتبرانك حكيماً وشهماً، وكم هما يريدان، ويستطيعان، أن يقوموا بخدمتك بسرور. ونحن، إذ نوصي بهؤلاء الرجال لدى فخامتكم، نطلب أن توليهم جل اهتمامك - من واقع محبتك لنا، ومن أجل مكافأة ذلكما الرجلين على ثقتهم - بنفس المحبة التي ترغب دائماً في التعبير عنها نحوك ونحو ذويك.

إن الله يعرف جيداً أننا نعزك باخلاص من أجل مجده، وأننا نبتغي سلامتك ومجدك في الحياة الحاضرة والمستقبلية. ونحن أيضاً نطلب من الله، بالشفاه، ومن القلب، بأن يتلقاك بنفسه، بعد حياة طويلة، في حضن الطوباي الأقدس الأب إبراهيم)). *

بعد قراءة نص رسالة البابا جريجوري السابع إلى الناصر بن علناس، نصتخلص ثلاثة نقاط أساسية:

أولاً: أن الناصرين علناس قام بتحرير أسرى مسيحيين كانوا ربما محتجزين عنده، كما وعد بإطلاق أسرى آخرين في المستقبل.

ثانياً: أن الناصر بن علناس ربما أحاط رسالته التي بعث بها إلى البابا بعبارات صادقة نحو الكنيسة ورجال الدين المسيحيين، دلالة على تسامحه وتسامح المسلمين في فترة تميزت فيها العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بالتصلب الشديد، وبالتالي جاء جواب البابا جريجوري بعبارات الود والمحبة بينه وبين الناصر بن علناس.

ثالثاً: كما قام الناصر بن علناس بطلب من البابا أن يرسل له أسقفاً للمسيحيين، ليدير شؤونهم في عاصمته، ربما بالقلعة قبل إنتقالها إلى بجاية.

هذا ما نستخلصه ضمناً من رسالة البابا جريجوري السابع إلى الناصر بن علناس، وما دمننا لأنملك رسالة الناصر إلى البابا، يصطدم الباحث في هذا الموضوع بإشكالية عويصة بين البحث عن الحقيقة إن كانت هناك حقيقة عن تلك الاتصالات بين الطرفين، أو بالتزام الصمت ولا يخوض في فرضيات لا أساس لها — كما فعل البعض من المؤرخين لاسيما الأجانب وعلى وجه الخصوص الفرنسيين — ونحن في غنى عنها؟ وما دامت الرسالة قد تم ترجمتها من لغتها الأصلية اللاتينية إلى الفرنسية وحتى إلى اللغة العربية، كما قام به البعض؛⁽¹⁾ أستوقفنا نقاط عديدة جاءت في نص المقال، البعض منها جاءت كإستنتاجات من الباحث والبعض الآخر جاءت كشهادات من كتابات مختلفة، كتبت في موضوع الكنيسة الرومانية المقدسة بالغرب، أو من مراجع مختلفة كتبت عن العلاقة بين البابا جريجوري السابع والناصر بن علناس.

وعليه نطرح أهم النقاط التي جاءت في نص المقال.

- يرى المؤرخ الفرنسي دي ماس لاثري بأنه "ربما لا يوجد بابا آخر عبر عن وده لأمر مسلم بمثل هذا التعبير والتدفق الذي جاء على لسان البابا.
- يرى المؤرخ الفرنسي كريستيان كورتوا (Ch.Courtois) بأن الأسرى الذين أحتجزوا من قبل الحماديين كان عددهم قليلاً، لسبب بسيط حسب إعتقاده بأن الحماديين لم تكن لهم إمكانات بحرية كبيرة في البحر تخول لهم بإحتجاز أسرى مسحيين وبعدهم كبير في بلادهم؟

• لكن سامي سلطان يرى العكس تماماً، فيرى أن الناصر بن علناس عندما أقدم على تحرير الأسرى المسيحيين، لم تكن حاجته إلى جمع مال "الفداء" من أجل بناء عاصمته الجديدة ببجاية. وبالتالي كان لإطلاق سراحهم رغبة في عمل شيء محبوب لدى البابا.

• إن هذا العمل الإنساني الذي أقدم عليه الناصر بن علناس، أحط من شأنه المؤرخ ماسي وراح يرسم لخياله، أن الناصر بن علناس الحمادي وأسرته، لم تكن إلا ربما من أصول بربرية أو مسيحية، وإن لاما تصرف بهذا التصرف إتجاه المسيحيين في الضفة الشمالية؟ وأن كان ماسي، قد أصاب في أصله البربري، لكن بالمقابل لسنا ندري من أين له بالمعتقد الديني لأسرة بن حماد. وعلق على هذا الرأي سامي سلطان بمايلي: ((...إذا أردنا أن نغض الطرف عما يحمله قول لاتري بين طياتة من أهداف إستعمارية واضحة قوامها تخريب إتحاد عنصري الأمة الجزائرية التي كانت تحتلها بلاده فرنسا وقت تأليفه كتابه)).

• أما المؤرخ كورتوا فيرجح سبب الإتصال بين الناصر بن علناس والبابا إلى عدم وجود أساقفة في إمارته للإشراف على شؤون المسيحيين، بعدما أن أصبحت قرطاجة مقراً لأساقفة بلاد المغرب الإسلامي. أو إلى تأثير الناصر كغيره من معاصريه، بالبابا جريجوري السابع أو ربما بشهرة وصيت البابوية خاصة منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي.

((Au fond, il n'y a qu'une originalité dans la démarche d'al Nasir... Peut être aussi le nom de la Papauté avait il grandi depuis le milieu du XIe siècle))⁽²⁾

ويري سامي سلطان أن الشهرة التي تمتعت بها البابوية في هذه الفترة لاتهم الناصر ولا تنفيده في شيء.⁽³⁾

وإن كان الناصر بن علناس قد أقدم فعلا على طلب تعيين أسقف في عاصمته ربما في بجاية، كان مدركا لحاجة الجالية المسيحية (وأغلب الضن أنهم، كانوا من تجار إيطاليين أو نزلاء في طريقهم إلى جزيرة صقلية أو إلى الأندلس، أو ربما سجناء بقلعته) إلى مقدم ليشرّف على صلواتهم وشعائرهم المسيحية بعين المكان. أو ربما ليجعل من بجاية

محطة للتجار المسيحيين ومنافسة في هذا الصدد لمدن ساحلية أخرى لاسيما مدينة المهديّة بتونس، عاصمة تميم بن المعز.

كما يرى المؤرخ كورتوا أن تواجد المسيحيين بقلعة الحماديين لانعرفه إلا من خلال ما ورد عن رجل الدين يوحنا دياكر (Pierre Diacre) الذي ذكر لنا قصة مفادها أن جماعة من رهبان مونتي كازينو (Monti cassino) في إيطاليا، والعائدون من جزيرة سردينيا وقعوا في يد المسلمين الذين جروهم إلى إفريقية. مما دفع بالملك روجر، II (توفي في عام 1156م، Roger) صاحب مملكة صقلية، إلى المطالبة بهم لدى السلطان الحمادي، وذلك سنة 1114م.

((quant à la commuauté d'al Qal'a son existence ne nous est connue que par un seul text, un long passage de Pierre Diacre... Le chroniqueur rapport qu'en 1114 des moines du Mont Cassin revenant de Sardaigne furent pris par les Sarrasins et emmenés en Afrique. Le comte Roger de Sicile les fit réclamer au souverain hammadite))⁽⁴⁾

ويضيف أيضاً بأن قلعة بني حماد، كانت لديها كنيسة تسمى كنيسة العذراء،

(al'Qal'a possédait une église dédiée à la Vierge). ويظهر أن الأسم الذي أعطي من قبل اللاتين لقلعة بني حماد هو الشيللا (Sarracenis Alchila) أو كاما (Camma) ربما المقصود بها كنيسة بمدينة قالمة، أو ربما كنيسة بمدينة عنابة. وعلى كل حال لسنا ندري بأن قلعة بني حماد كانت بها كنيسة خلال القرن الثاني عشر الميلادي، ربما لعدم إحاطتنا ببعض الأعمال التاريخية الأثرية التي جرت بالقلعة، ولا حتى بكتب الجغرافيون العرب. حتى الأبحاث التي قام بها، الرشيد بورويبة في قلعة بني حماد في المعاضيد بمسيلة -في فترة السبعينات من القرن الماضي- حالياً لم تثبت ذلك. لكن مع ذلك يسر كورتوا، في بحثه ليثبت أن قلعة بني حماد كان بها كنيس خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

((mais en a voulu aller plus loin et tirer de ce texte la preuve de l'existence d'un évêché à al Qal'a au XIIe siècle))

والنتيجة التي توصل إليها تبقى فرضيات وتحتاج من الباحث التدقيق والفحص الدقيق لتاريخ القلعة. فهو يرى بأن تواجد المسيحيين بالقلعة هو عبارة عن مجموعة من المهاجرين المسيحيين أكثر منهم من مجموعة أهلية أو أصلية .

((groupe de chrétiens immigrés plutôt qu'une communauté indigène...on peut penser que le gros de la chrétienté d'al Qal'a était africaine)).⁽⁵⁾

كما أن رسالة البابا للناصر بن علناس لم يفصح فيها جريجوري السابع عن المكان والكنيسة التي سوف يعين على رأسها رجل الدين سارفونديس (Servandus). لكن، بالمقابل يرى كورتوا في قراءة له في رسالة أخرى للبابا بأن المكان هو هيبو (Hippo) (عناية)

((Y ppona in Mauritania Sifitinse id est in Africa))⁽⁶⁾

ويخلص في النهاية، بأن أقل من عشرة سنوات على تأسيس بجاية من قبل الحمادين وجدنا جالية مسيحية بها، وعلى ضوء هذا التواجد المسيحي بعاصمة الحمادين الجديدة رحب البابا بهذه الرسالة التي أشتم من خلالها راحة الترحيب من قبل الناصر بن علناس، على قول كورتوا: la bienveillance d'al Nasir vis-à-vis des ((chrétiens))⁽⁷⁾

كما أن الأسقف: هنري تيسي هو الآخر يشك في وجود مسيحيين بقلعة بني حماد، ويتساءل، هل كانوا من "قدماء" المسيحيين بأفريقيا، أو كانوا من العبيد (الجواري) أو من المهاجرين الأندلسيين.

((...dans laquelle l'existence d'une communauté chrétienne est attestée. Il n'est pas facile de savoir si ces chrétiens étaient les derniers survivants du christianisme ancien, ou s'ils étaient formés d'émigrés et d'esclaves andalous))⁽⁸⁾

ولا أعتقد بأن الناصر قد تجرأ لهذا الحد، بأن يطلب من البابا مده بمرتزة مسيحين ليتحرش بهم ضد خصمه تميم بن الزيري، أمير المهدية، ولا حتى بالمرابطين في المغرب الأقصى حتى وإن كانت لهم أطماع في إمارته، ولاننسى دور تميم بن المعز في رد الخطر النورماني ومد يد العون إلى المسلمين في جزيرة صقلية. وبالتالي أما

كان علي الناصر مهاجمتها متى شعر بضعف قوتها وهي تحارب النورمان على مسافة بعيدة عنها في البحر، دون أن يطلب مرتزقة مسيحيين من البابا؟ أما رجل الدين سرافاندوس الذي أوصل طلب الناصر الى البابا لسنا ندري ما هي الأشياء والمعطيات التي أخبر بها البابا عن أحوال الجاليات المسيحية أو عن الظروف التي كانت تمر بها المنطقة خاصة مع نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وبغض النظر عن تفاصيل هذه الأحداث، نرى أن سرافاندوس ربما قد جاء للبابا بأخبار تسره أكثر مما تؤسفه عن أحوال المسلمين في الضفة الجنوبية من البحر المتوسط، وخاصة بجزيرة صقلية كما سنرى ذلك لاحقاً.

((pendant les premiers mois de l'année 1076 Grégoire aura, du fait du retournement provisoire de sa politique sicilienne le plus grand intérêt à ce que se prolonge entre les deux princes musulmans, une guerre, dont l'un des résultats, au moins, était d'affaiblir la puissance d'action des Zirides en Sicile))⁽⁹⁾

مما لا شك فيه نرى ولا نجزم القول بأن الناصر بن علناس كان يدرك جيداً أحوال المسلمين على الأقل في الحوض الغربي للبحر المتوسط، خاصة في جزيرة صقلية القريبة منه، أو بأحوال المسلمين في الأندلس، والظروف الصعبة "الهجمة المضادة (counter attack) التي تعرضوا لها في تلك الديار على يد النورمان أو المسيحيين الأسبان، ربما وصلت الى ابن علناس، تلك الأخبار عن معاناتهم عن طريق التجار الوافدين عبر البحر الى بجاية التي ظلت محطة رئيسية للسفن البحرية، سواء للتجارة مع الحماديين أو كمرفأ أساسي لرسوي سفنهم أثناء العبور من الشرق الى الغرب والعكس صحيح. كما لا ننسى أن مرفأ بجاية وأهميته لم يعود الفضل الى الأتراك أو الى الأوروبيين في إكتشاف أهميته الإستراتيجية، كملاً آمناً خاصة عند ظهور أحوال طبيعية صعبة في البحر تلجأ اليه السفن في وقت الشدة، وإنما الى المغاربة منذ القديم.

إن إحساس الناصر بهذا الخطر الذي داهم المسلمين من كل صوب وحذب، وعجزه لردّه عنهم، ربما حركت مشاعره لكسب صداقة البابا جريجوري السابع ليتوسط لصالحهم لديه،⁽¹⁰⁾ على ما يرى سامي ساطان مادامت اليد قصيرة لنجدتهم عسكرياً.

ومهما يكن من أمر، فإن هذه الفرضيات والإحتمالات التي أجتهد فيها الكثيرون من الباحثين وعلى وجه الخصوص (Christian Courtois) في مقال له:

(Revue historique N° 63059) بعنوان: جريجوري السابع وأفريقيا الشمالية، ملاحظات حول الجاليات المسيحية في إفريقية خلال القرن الحادي عشر الميلادي.

(remaques sur les communautés chrétiennes d'Afrique au XIe siècle)

ومهما يكن من أمر، فإن بعض هذه الفرضيات ممكن قبولها، لكن بعضها يحتاج من أي باحث في هذه العلاقة بالإحاطة بكل تلك الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت تمر بها المنطقة لكي يتسنى له الوقوف على الدوافع الحقيقة من وراء هذه العلاقة إن كانت هناك علاقة أصلاً بين الطرفين ؟ وعليه أردنا في هذا البحث أن نركز على الطرف الآخر، أي البابا جريجوري السابع لما له من أهمية في تاريخ الكنيسة الرومانية المقدسة بالغرب، وفي بلورة الفكرة الصليبية قبل أن يتبناها خليفته البابا، إربانوس الثاني، (1088 1099) م، وربما أيضاً لمحاولة الوقوف عن الأسباب الحقيقية من وراء تلك الاتصالات بين الطرفين، الحمادي، والبابوي. كما علق سامي سلطان فإن إستجابة البابا لطلب الناصر بن علناس فهو أمر طبيعي ولاغرابة فيه (10)، كيف لا يستجيب لهذه المبادرة وهو حامي المسيحيين، باسم القديس يوحنا في شتى أنحاء العالم المسيحي، خاصة وأن الطلب جاء من حاكم مسلم. كما أن القراءة المتأنية لرسالة البابا جريجوري السابع الى الناصر الحمادي، يدرك من خلالها القارئ جيداً تلك العبارات الود والمجاملة، التي قال عنها ماسي: (لم يسبق لبابا آخر أن وجهها لسلطان مسلم). إذاً من يكن هذا البابا الذي دوى صيته جميع أركان الأباطورية الرومانية المقدسة بالغرب (المانيا)، وحتى الأباطورية الشرقية البيزنطية؟ إنه فعلاً كان شخصية مثارة للجدل عند جموع الباحثين والمؤرخين خاصة للتاريخ الكنسي وحتى السياسي للتأريخ الأوربي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

إسمه الحقيقي، (Hildebrand) هايدبراد كان أصغر رجال الدين "من طبقة الرهبان" الذين أجمعوا في الكنيسة الرومانية مع البابا ليو التاسع (1049-1054) Leo IX ومع

نهاية فترة حكم البابا الأسكندر الثاني Alexander II (1061-1073) (بقي الوحيد من هيئة رجال الدين curie /curia على قيد الحياة، وعند تشجيع جنازة هذا الأخير، قام غليان شعبي في روما مطالباً بهايديراند بأن يصبح بابا على كنيسة روما، وحسب ما كتبه عن سيرته الشخصية: أنه جُر به الى الكرسي الرسولي).

(dragged(him) to the place of apostolic rule) وعند إعتلائه لكرسي البابوية أتخذ لنفسه إسم البابا جريجوري السابع، (1073-1085) بالنسبة للمؤرخ ليوبولد : Leopold Ranke, ((Gregory, was a man of bold, prejudiced and a spiring mind))⁽¹²⁾ ((إن جريجوري كان إنسان جريء ومُضِر وصاحب تفكير روحي)). أما بالنسبة للمؤرخ وليام اولمان W.Ullmann ((أن جريجوري كان من الوجوه التاريخية التي يصعب محوي بصماتها من البابوية ولا حتى من مراحل التاريخ الأوربي)).

((Gregory was one of the historical figures, who left an indelible imprint on the papacy as well as the course of European history))⁽¹³⁾

وعليه لفهم مغزى علاقة "ومُحابات" جريجوري للناصر الحمادي، يجب علينا قبل كل شيء أن نحاول معالجة الظروف السياسية والعقائدية التي واكبت فترة حكم البابا جريجوري السابع بروما.

إن حوض البحر المتوسط ظل حوضاً مشتركاً بين المسلمين والمسيحيين، قسمه في الماضي الى شطرين شمالي وجنوبي وما زال يقسمه في الحاضر. وفي نظر الأوربيين ظل البحر المتوسط مركز الخطر (the center of gravity) في العالم القديم وهذا حتى سنة 1095م الى فترة الحروب الصليبية⁽¹⁴⁾. وعلى أطرافه قامت الأمبراطوريتين البيزنطية والرومانية بالغرب وأقيم كرسي البابوية بروما عاصمة المسيحيين الكاثوليك، ما توج الأباطرة الرومان بالغرب، بدءاً بشرلمان وإنهاءً بالأمبراطور شارل الخامس (شارل V الإسباني). وجنوبه وشرقه، قامت عدة حضارات : الفينيقية، الفرعونية، الإغريقية والعربية الإسلامية. ومادام البحر المتوسط أصبح مركز الخطر من وجهة نظر بعض الأوربيين للأحداث التي عرفها النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، فالخطر حسب إعتقادهم كان يكمن، في عدة أسباب، وإن كانوا

قد صعب عليهم تحديدها. هل كانت في خروج النورمان وإحتلالهم لجنوب إيطاليا (من البيزنطيين، مدينة باري عام 1071م، وجزيرة صقلية من المسلمين، سقوط آخر معقل - نوتو - (Noto) للمسلمين بالجزيرة سنة 1091م) كان يمثل خطراً على الغرب اللاتيني؟ أو في الحرب التي شنها الملك ألفونسو السادس ضد المسلمين في إسبانيا وسقوط مدينة طليطلة تحت سيطرته سنة 1087م؟ أو الخطر كان يكمن في تقدم الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى وبلاد الأناطول؟ أو في التعبئة الشعبية التي قادتها البابوية عشية الحروب الصليبية ضد المسلمين سنة 1095م؟ وعليه نقول ان البابا جريجوري السابع عاش كل هذه الأحداث، خاصة عندما ألحق بهيئة رجال الدين (الأكريوس) في ظل حكم البابا ليو التاسع، الذي لم تقل فترة حكمه أهمية عن فترة جريجوري السابع حسب النقاد.

إذا بحثنا في أهم الأعمال التي قام بها البابا جريجوري السابع عندما أعتلى كرسي البابوية سنة 1073م، نجدها عديدة ومتشعبة. فقد علق أحد المؤرخين على فترة حكمه بمايلي: ((أن فترة حكمه تعتبر نقطة تحول في تاريخ البابوية في العصور الوسطى، ومنذ بداية حكمه أصبح واضحاً أن الأشياء تغيرت))

((a turning point in the history of the medieval papacy ;and from the beginning it was clear that things had changed)).⁽¹⁵⁾

وما يهمنا في هذا العرض ليس كل الأعمال التي أقدم عليها أثناء فترة حكمه، والتي تهم بالدرجة الأولى الكنيسة الرومانية وصراعها مع الأمبراطورية الرومانية لاسيما في عهد الأمبراطور (هنري الرابع ت. 1085)، لكن نحاول أن نعرض موقف البابا من المسلمين، وبالتالي أعتقد يمكن لنا وضع رسالته الى الناصر الحمادي في إطارها المناسب، وإستقراء النوايا الحقيقية من هذا التقارب Rapprochement بين البابوية والحماديين، كما ذكرنا ذلك آنفاً في ظل هذا التشنج في العلاقات لاسيما على أطراف البحر المتوسط.

أول خطوة أقدم عليها ما بين 1073/1075 م هو التحضير لحملة عسكرية ضد السلاجقة الأتراك الذين هزموا الأمبراطورية البيزنطية في معركة ملاذكرت سنة 1071م. وهذا ما حدث فعلاً بينه وبين الأمبراطور البيزنطي ميخائيل السابع (1071/1078م)

،وعلى قول عادل زيتون ((خاصة بعد أن دغدغ ميخائيل عواطف جريجوري بإعادة الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية))⁽¹⁶⁾ وهذا بعد الإنشقاق الكنسي الكبير سنة 1054م. أما الخطوة الثانية التي أقدم عليها هو دخوله في حلف مع الأمبراطور هنري الرابع وهذا حتى صائفة وخريف سنة 1075م. وعلى ضوء هذا التهديد "الإسلامي" لأقاليم بيزنطية (الخارجة عن سلطة البابا الكاثوليكية)، سارع الى كتابة خطاب وجهه الى كل المؤمنين للدفاع عن القسطنطينية من خطر المسلمين. وعليه كتب في هذا الشأن مايلى: ((لقد قرأت النبأ من أحد الرسل(زوار بيت المقدس)ومن آخرين أن الشعب الوثني مازال يضغط بقوة إتجاه الأمبراطورية المسيحية وبوحشية بالغة،كما افتكوا مساحة شاسعة بلغت حتى أسوار القسطنطينية وقاموا بذبح الآلاف من المسيحيين مثل الأغنام)).(خطاب في 1 1074/3م)

((From him,as also from many others we have learned that a people of the pagans have been pressing hard upon the Christian empire,have cruelly laid waste the country almost to the walls of Constantinople and slaughtered like sheep many thousand Christians))⁽¹⁷⁾

وحاولنا توخي الأمانة في نقل هذه العبارات من اللغة الأنجليزية الى العربية.وعليه نلاحظ العبارات التي تصور لنا فهم وصورة البابا جريجوري للطرف الآخر: وثنيين،وحشية،ذبح، people of the pagans,cruelly, slaughtered like sheep وهي كلها ألفاظ تسيء للمسلمين.ثم يأتي البابا في رسالة أخرى وجهها هذه المرة الى هنري الرابع ملك المانيا والأمبراطور الروماني في الوقت نفسه وهذا في شهرديسمبر من سنة 1074م.ويقول له فيها مايلى: ((احيط إنتباهك بأن المسيحيين وراء البحر أن عدداً كبيراً منهم تم القضاء عليه من قبل الوثنيين...وكل يوم يذبحون مثل الأغنام،وإنهم ترجوني لنجدة إخواننا وبأية طريقة كانت...وأخذ السلاح ضد أعداء الله والسير حتى الى كنيسة السيد المسيح)) عليه السلام.

((I call to your attention that the Christians beyond the sea,a great part of whom are being destroyed by the heathen with unheard- to-slaughter and are daily being slain like so many sheep, have humbly sent to beg me to succor these our brethern in whatever ways I

can,...to take up arms against the enemies of God and push forward even to the sepulcher of the Lord ...))⁽¹⁸⁾

ومرة أخرى نقرأ العبارات التالية: وثنيين، ذبح، إخواننا المسيحيين، أخذ السلاح ضد أعداء الله والمقصود هنا ضد المسيحيين (والسيد المسيح عليه السلام). وقد ذكر لنا سامي سلطان نقلا عن المؤرخ ماسي أن البابا جريجوري قام في 16 من شهر سبتمبر سنة 1073م أي مباشرة بعد إعتلائه كرسي البابوية بتوجيه رسالة الى رئيس أساقفة قرطاجة (قرياقص Cyriacus) وصف فيها المسلمين بأنهم كفار أو وثنيون⁽¹⁹⁾. ونفس الشعور الملفوف بالحقد والتصلب ضد المسلمين أبداه البابا جريجوري السابع سواء في جزيرة صقلية أو في إسبانيا خاصة مع ملك قشتالة وليون، الفونسو السادس، وحروبهما ضد المسلمين.

إذاً بات واضحاً أن نقرأ من هذه الكتابات للبابا جريجوري السابع، أفكاره وموقفه من الطرف الآخر أي المسلمين: فهم وثنيين، وأعداء للسيد المسيح عليه السلام ؟ إذاً لماذا لفق رسالته الى الناصر بن علناس بألفاظ المودة والمحبة، ولم يحاول أن يجرح مشاعره خاصة وأنه أدرك تسامحه مع المسيحيين في بلاده، وهو الذي بادر الى طلب إستحضار مقدم لهم من روما للإشراف على صلاتهم وطقوسهم الدينية ؟ هل أراد البابا على ما ذكره البعض الإغداد لتتصير الناصر الحمادي والأخذ بالديانة المسيحية ؟ أو التحالف معه لنصرة مسيحي إسبانيا وصقلية ؟ لكن من من ؟ من يد الضحية أو الجلاذ ؟ وهذا ما ذكره سامي سلطان نقلا عن المؤرخ بارجيس⁽²⁰⁾.

ومهما يكن من أمر، فالإغداد " لتتصير" الناصر الحمادي أمر مستبعد تماماً، ودليلنا في ذلك أمثلة عديدة عن تاريخ مسلمي الأندلس، لم يحدث ان أستبدل مسلماً ديانتهم رغم صلة القرابة بين المسيحيين والمسلمين ورغم الاحتكاك المستمر بين الطائفتين. ومبالك بي الناصر بن علناس السني الملكي؟ وهل يعقل أن يطلب البابا من الناصر التوسط له للمسلمين في جزيرة صقلية أو إسبانيا ليسلموا ديارهم وأعراضهم الى النورمانيين أو نصارى إسبانيا، أمثال الملك الفونسو السادس ؟ ومن غير مقاومة؟ هذا الأمر في اعتقادنا غير معقول أيضاً، لأن الناصر بن علناس إمكانياته لم تسمح له حتى بنجدة المسلمين على شواطئ بلاد المغرب من ملاحقة المسيحيين لهم في أعالي البحر

المتوسط، سواء في عهده أو في الفترة التي سبقتة. وكما ذكرنا ذلك سابقا أن المسلمين في هذه الفترة كانوا في حالة دفاع، خاصة بالجزء الغربي للبحر المتوسط. الم يبارك البابا بندكت الثامن سنة (1015م) مدينتي جنوة وبيزا في إحتلالهما لجزيرتي سردينيا وكورسيكا؟ وعندما نجحتا في طرد المسلمين منهما أعطى لهما البابا بندكت الحق في إمتلاك الجزيرتين؟ كما قامت مدينة بيزا سنة (1043م) بمهاجمة مدينة هيبو أو بونة (عنابة حالياً)، كما قام البيازنة بتقديم جميع الأسلاب والغنائم التي حصلوا عليها الى دير كلوني (clung) في منطقة البروفانس بفرنسا؟ كما قامت المدينتين معا بشن هجوم على ميناء باليرمو في جزيرة صقلية الإسلامية وإحراق دار الصناعة بها، وخمس سفن تجارية؟ هل كان الناصر الحمادي مدركاً لهذه الأخطار التي أحاطت بالمسلمين في البحر وبالتالي سعى الحماديين عند نقل عاصمتهم من القلعة الى بجاية بتأسيس دار الصناعة البحرية، ليتقي شر المهاجمين؟ وهناك حادثة أخرى نقلها لنا عادل زيتون، نقلها عن ابن ابي الدينار: المونس في أخبار أفريقيا وتونس، وأيضاً من كتاب الرحلة لصاحبه محمد التيجاني، أن الجمهوريتين جنوه وبيزا قامتاً عام (1087م/ 480هـ بأكبر هجوم بحري لهما على بلاد المغرب واستولت هذه الحملة على المهدية وزويلة، وربما كان هذا الهجوم بتحريض من البابوية، وذلك لأن وجود أحد الأساقفة في هذه الحملة أضفى عليها رعاية ووجود الكنيسة وتشجيعها لها. (21)

أما إحتلال النورمان لجزيرة صقلية جاء أيضاً بمباركة وتركيزة من البابوية، عملاً بالشعار الذي رفعته البابوية، بأن من يقاتل في سبيل استرداد الأماكن المسيحية من المسلمين تغفر له ذنوبه مهما عظمت. وفي إعتقادنا أن جريجوري السابع قد رسم سياسة واضحة لا مجال فيها للشك، أن الكنيسة الكاثوليكية هي سيدة العالم. (22) ولا يسموا عليها أحداً، وأن الفرصة قد حانت لأخذ الصاع صاعين، سواء في الأندلس، أو في صقلية، أو في بلاد المغرب الإسلامي، أو في آسيا الصغرى أو حتى في بيت المقدس. وهذا ما أستنتجته شاهد من أهلها أراد أن يرسم هو الآخر طريق جريجوري السابع لكن هذه المرة بثوب جديد يدعى لأفيجري بالجزائر ودول المغرب العربي، ليقول لنا بصراحة هناك إستمرارية لهذا الوجود حتى وإن غاب جريجوري السابع.

((Ces lettres nous font voir aussi un Grégoire VII quelque peu mouvant dans ses opinions sur l'Islam, ou tout au moins sur les musulmans)).⁽²³⁾

لكن أجد نفسي ربما متحاملاً ضد الكنيسة الرومانية خاصة في ظل هذا التشنج والتعصب اتجاه المسلمين عشية الحروب الصليبية، شد أنتباهي في رسالة البابا جريجوري السابع الى الناصر الحمادي تلك الفقرة التي يقول فيها للناصر مايلي:
 ((وعلى ذلك ينبغي أن تكون المحبة بيننا، نحن وأنتم بوجه خاص، أكثر مما تكون بيننا وبين الشعوب الأخرى، طالما أننا نؤمن ونعترف -بطريقة مختلفة في الحقيقة- بأنه واحد نسيح بحمده،...))، الى آخر الفقرة. وعليه نفهم من كلامه هذا أنه يعترف ضمناً بأن الطرف الآخر (المسلمين) الذين يوحدون الله ويؤمنون بالله واحداً نسيح جميعاً بحمده. وفي حقيقة الأمر أرى هذا الرأي غريباً نوعاً ما، خاصة أنه (نسب) أو جاء على لسان جريجوري السابع بالذات، لأن كتاباته عن المسلمين كانت دائماً تصفهم بألقاب مغايرة تماماً، مثلاً الرسالة التي أشرنا إليها سابقاً وقلنا أن البابا وجهها الى رئيس أساقفة قرطاجة واستعمل لفظ باقانونس *paganus* أو بقاني *pagani* ومعناها وثييين، أو سراسن *Sarrasins* أو أعداء السيد المسيح *Anti Christ* أو برابرة *Barrebares* وغيرها من الألفاظ التي للأسف تحط من قيمة المسلمين. أريد أن أشير الى دراسة أكاديمية قام بها المؤرخ الإنجليزي R.W.Southern سنة 1962 بجامعة أوكسفورد "تظرة الغرب للإسلام في العصور الوسطى" Western views of Islam in the Middle Ages والذي يرى أن الغرب المسيحي قبل سنة 1100م، لايعرف شيئاً عن الإسلام كديانة

⁽²⁴⁾ ((They knew virtually nothing of Islam as a religion)) ويضيف بأن الإسلام بالنسبة إليهم أي الغرب هو عبارة عن عدداً كبيراً من الأعداء، هددوا العالم المسيحي من كل الإتجاهات. كما يرى أيضاً، أن قبل هذه السنة (1100م) لم يجد ذكراً في أدب العصور الوسطى، لأسم النبي، محمد صلى الله عليه وسلم إلا مرة واحدة وكان ذلك خارج إسبانيا وجنوب إيطاليا، لكن بعد سنة 1120 كان الجميع له صورة عن الإسلام، ومن هو محمد (ص). وهذه القصة تعود الى الراهب Abbot Majolus of Cluny in 976 وهذا ما نقله المؤرخ Ralph Glaber في كتابه (التاريخ History

1886). ومهما يكن من أمر فالسؤال المطروح، هل جريجوري السابع كان يدرك أن الطرف الآخر، المسلمين يوحّدون الله ويعبد الجميع إله واحد؟ وهو الذي كانت له علاقات متينة وقوية مع هذا الدير (دير كلوني) وبالتالي دس الدير هذا الخبر عن العامة، ربما خوفاً من تحول الكثير من أبنائها إلى إعتناق الإسلام لاسيما في الأندلس. نعتقد أن جريجوري السابع كان يدرك ذلك جيداً لكن كان ربما مُصاب بمرض الجهالة "أي أنك تدرك الشيء جيداً وتتناظر بجهله" أو أن البابا جريجوري السابع على صواب والناصر بن علناس الحمادي على خطأ؟

ونختم بحثنا بهذه الشهادة التي نقها المؤرخ Dozy في مؤلفه Musulmans d'Espagne والتي نقلها عن الراهب ورجل الدين الأسباني Paul Alvarus الذي عاش خلال القرن التاسع الميلادي، وبدوري نقلتها من كتاب ساوثن :

((The Christians love to read the poems and romances of the Arabs; they study the Arab theologians and philosophers, ... Alas all talented young Christians read and study with enthusiasm the Arab books... They have forgotten their language)).⁽²⁵⁾

((المسلمون يحبون قراءة الأشعار والآداب العربية الرومانسية ويدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة... لكن للأسف كل خيرة أو صفوة الشباب المسيحي يقرأون الكتب العربية بحماس، وبالتالي نسوا لغتهم.))

وعليه تبقى رسالة البابا جريجوري السابع إلى الناصر بن علناس محطة هامة في فهم ومزيد من البحث في تاريخ العلاقات الخارجية (المعقدة) للكنيسة الرومانية المقدسة مع جيرانها، سواء كانوا من المسيحيين الشرقيين أو من المسلمين. كما أن رسالة البابا إلى الناصر الحمادي جاءت في فترة مُتشنجة بين الطرفين قلما شهدت العلاقات بين الشرق والغرب في فترات سابقة. وهل البابا أخطأ في التقديرات؟ أو أن هذا التعصب الديني لاسيما المسيحي إتجاه المسلمين جاء كتحصيل حاصل لهذه العلاقة قبل الحروب الصليبية؟...

* ((Grégoire, Evêque, serviteur des serviteurs de Dieu, à An-Nasir, Roi de la province de Maurétanie sitifienne, en Afrique.

Ta noblesse nous a écrit,cette année même,pour que nous consacrons évêque,suivant la loi chrétienne,le prêtre Servandus.Ce que nous nous sommes empressé de faire,parceque ta demande nous semblait juste et excellente.En outre,tu nous a envoyé tes présents et tu as libéré,par déférence pour le bienheureux Pierre,prince des Apôtres,et par amour pour nous,des chrétiens qui étaient retenus comme captifs chez les tiens.Tu as, de plus,promis de libérer les autres(chrétiens) captifs.C'est certainement Dieu,créateur de toutes choses,Dieu sans qui nous ne pouvons rien faire,ni même penser de bon,qui a inspiré à ton cœur cette bonne action,car il éclaire tout homme venant en ce monde,et il a éclairé ton esprit en cette occasion.Dieu tout puissant,en effet,qui veut que tous les hommes soient sauvés et qu'aucun ne périsse ,n'apprécie rien tant,chez chacun de nous,que l'amour du prochain après l'amour de Dieu,et que le soin de ne point faire à autrui ce que nous voudrions point qu'on nous fit.Or cette charité,nous et vous,nous nous la devons mutuellement,plus encore que nous la devons aux autres peuples, puisque nous confessons et reconnaissons-de façon différente,il est vrai-un Dieu unique,que nous louons et vénérons chaque jour,comme Créateur des siècles et Maître de ce monde.Suivant la parole de l'apôtre : « Il est notre Paix,Lui qui des deux n'en a fait qu'un ».(trad.Courtois).

الهوامش

سامي سلطان: مجلة الدراسات التاريخية العدد: الأول 1986م "دراسة عن رسالة البابا جريجوري السابع الى العاهل الحمادي الناصر بن علناس". في عام 469هـ - 1076م ص ص 42-69.

(1)

Christian Courtois

Revue Historique, No 63059, 1945, Grégoire VII et l'Afrique du Nord, p.211.

(2) سامي سلطان، نفس المرجع، ص 47.

(3) Courtois: op.cit, pp. 204.

(4) Courtois: op.cit, p. 205/206.

(5) Courtois: op.cit, p.207.

(6) Courtois: op.cit, p.211.

- (7) Histoire des Chrétiens D'Afrique Du North, sous la direction de
Mgr, Henri Teissier archevêque d'Alger, Desclée, Paris
1991.p.53.
- (8) Courtois: op.cit.pp.219-220
- (9) سامي سلطان، نفس المرجع، ص 49.
- (10) سامي سلطان، نفس المرجع، ص 49.
- L.Rank, History of the Popes of Rome, 1847.p.20
- (11) W.Ullman, The Growth of the Papacy in the Middle Ages, p.147
- (12) H.E.Mayer, The Crusades, 1984.p.1
- (13) G.Barracough, The Medieval Papacy. (1968) Reprinted, 1979.p.80
- (14) عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنسية في العصور الوسطى، ط 1980 ص 82.
- (15) Book I, 49, p.75. مجموعة من الرسائل لجريجوري السابع، ترجمت من أعماله
الى اللغة الانجليزية .
- (16) Book II, 31, p.165 نفس المرجع السابق.
- (17) سامي سلطان، نفس المرجع، ص 44-45 .
- (18) سامي سلطان، نفس المرجع، ص 50.
- (19) عادل زيتون، نفس المرجع، ص 126/120.
- (20) History, Vol, 58. No 198 (1973)
- (22) Gregory VII and The Soldiers of Christ. by I.S.Robinson .Pp.193/192
- (23) Courtois, op.cit.p.216
- R.W.Southern, Wesrten Sociaty and the Church in the Middle Ages,
1962.p.14 (24)
- Ibid, p.16. (25)

مراجع البحث :

- A.Comnena The Alexiad, Translated from the Greek
By, E.R.A.Sewter, 1969 Reprinted, 1982.
- L.Rank History of the Popes of Rome
Translated by E.Foster Bohn's Standard
Library, 1847.

- A.Fliche Histoire du Monde Vol:VI E.De Boccard La chrétienté Médieval ,Paris,1929.
- B.Tierney The Crisis of Church and State 1054 - 1300 Prentice Hall Intl (USA),1964.
- H.E. Mayer The Crusades Trans,by:J.Gillingham First pub,1972 Rep,1984.London.
- M.Deanesly A History of the Medieval Church 590 1500 6th Ed, London,1950.
- W.Ullmann The Growth of Papal Government in the Med Ages 2nd Ed,1962.
- " " A Short History of the Papacy in the Middle Ages Rep in 1982.
- R.W.Southern Western Society and the Church in the Middle Ages Penguin Books,First pub,1970,Rept,1983.
- " " Western views of Islam in the Middle Ages Cambridge, Mass,1962.
- G.Barraclough, The Medieval Papacy.(1968) Thames and Hudson,Reprinted 1979
By:Z.N.Brooke,C.W.Previté,J.R.Tenner In The Cambridge Medieval History Vol,V" Contest of Empire and Papacy".Cam,Univ Press, 1926.
Par,Christian Courtois In. Revue Historique (P.U.F)N°63059, 1945.
- "Grégoire VII Et L'Afrique du Nord",Pp,193-2
By.I.S. Robinson .In.History, vol 58 No 193, June 1973.
- "Gregory VII and The Soldiers of Christ"..Pp.169-192.
- Histoire des Chrétiens D'Afrique Du North, sous la direction de Mgr.Henri Teissier archevêque d'Alger,Desclée,Paris 1991.

عادل زيتون : العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، ط 1 1980 دمشق.

سامي سلطان: مجلة الدراسات التاريخية العدد: الأول 1986م "دراسة عن رسالة البابا جريجوري السابع الى العاهل الحمادي الناصر بن علناس". في عام 469هـ -1076م ص ص، 42-69.